ثراء عشرات الآلاف وفقر مئات الملايين من البشر ، والبحث الدائم عن طريق تحقيق العدالة الاجتماعية ، تلكم هي الصفات الاساسية في اعمال تولستوى ودستويفسكي العبقرية.

إن خصائص ابداع الكاتبين ترتبط ، قبل كل شيء ، بخصائص نظرتهما الى الكون وبالتربة الاجتماعية التي حددت تلك النظرة . فقد عبرت مؤلفات تولستوى عن احتجاج جماهير الفلاحين الروس الغفيرة ويأسها بعد أن وجدت نفسها على حافة التشرد والموت جوعا بعد الاصلاح القيصرى . أما مؤلفات دستويفسكي فعبرت عن التناقض في وعي فقراء المدينة وحياتهم ، ففي ظروف نمو الرأسمالية والحالة الثورية نموا عاصفا عانى هؤلاء احساسا حادا بذئبية قوانين المنافسة الرأسمالية وعانوا من شتى انواع اذلال الانسان واهانته ولكنهم كانوا في الوقت نفسه ، يخافون أي تغيير في النظام الاجتماعي ولا يتصورون امكانية انشاء اشكال أخرى من الحياة الاجتماعية . ولم تكن التناقضات المشار اليها ناجمة عن أخطاء الكاتبين العبقريين وأوهامهما فحسب ، بل كانت أيضا انعكاسا لفكر الجماهير الشعبية واوهامها في ذلك العصر . ولقد كان التعبير عن فكر الشعب جانب القوة في مؤلفات تولستوى ودوستويفسكي ، بينما كان التعبير عن الأوهام جانب الضعف فيها .

قطع تولستوى رحلة ابداعية وحياتية كبيرة ومعقدة جدا قبل أن يتمثل في نفسه أفكار جماهير الشعب الروسي الكادحة وأحلامها وآمالها . غير أن تولستوى الباحث العظيم عن الحقيقة ، تأمل بعمق ومنذ حداثة سنه ، حياة اقطاعيي روسيا وحياة فلاحيها وتعمقت مع الزمن قناعته بخواء حياة الطبقات المستغلة وزيفها وظلمها ، وايمانه بجمال قلب الفلاح الروسي والكادحين من امثاله . ثم انتهى به الأمر الى القطيعة الحاسمة الكاملة مع تلك الطبقة التي ارتبط بها بحكم المولد والمنشأ والى ادانتها جملة وتفصيلا وتأكيد انسانية حياة الشعب وجمالها .

ولكن الأوهام الشعبية التي ارتبطت آنذاك بعدم تربية الجماهير الفلاحية تربية سياسية وبنفسيتها الحالمة ولين تريكتها منعت تولستوى من ايجاد الطرق الحقيقية لانشاء « الحياة الأفضل » وقادته الى المناداة بالكمال الأخلاقي وعدم مقاومة الشر بالعنف ، والاعتقاد بأن هاتين الوسيلتين هما الوحيدتان اللتان تنقذان المجتمع من جميع امراضه .

وتجلى فكر الشعب في ابداع دوستويفسكي في نقده القاصم للتمركز حول الذات والأنانية والوعي الفردي والظروف الاجتماعية التي تسبب وحدة الانسان المؤلمة وتخلق نفسية « المذلين المهانين » المرضية الممزقة وشتى انواع القرحة والعيوب الاجتماعية وأولها الفقر